قافية العين

١٣٢

الديار البلاقع

[الطويل]

طَـرِبْـتَ وهـاجَـتْـكَ الـدِّيـارُ الـبَـلاقِـعُ
وعـادَكَ شَـوْقٌ بَـعْـدَ عـامَـيْـنِ راجـعُ[١]
وأَوْقَـدَ نـاراً فـي فـؤادِكَ مُـحْـرِقـاً
غـدَاتَـئِـذٍ لِـلْـبَـيْـنِ أَسْـفَـعُ نـازعُ[٢]
شـحـا فـاهُ نُـطْـقـاً بِـالـفِـراقِ كـأَنَّـه
سَـلـيـبٌ حَـريـبٌ خَـلْـفَـهُ الـسـربُ جـازعُ[٣]
فـقـلـتُ: ألا قـد بَـيَّـنَ الأَمْـرُ فـانـصـرفْ
فـقـد راعَـنـا بـالـبَـيْـنِ قَـبْـلَـكَ رائِـعُ[٤]
سُـقِـيـتَ سـمـامـاً مِـنْ غُـرابٍ فـإِنَّـمـا
تَـبَـيَّـنْـتُ مـا حـاولـتَ إِذْ أَنْـتَ واقـعُ[٥]

(١) طربت: جعلتك تضطرب لما ترى. البلاقع: مفردها بلقع: المكان القفر. عادك: رجعك، يقف الشاعر على أطلال تركها أهلها قفراً، لا حياة فيها، بعد عامين من رحلة الأقدار، ممّا أثار فيه إحساس الألم وحمله إلى الماضي وذكرياته الجميلة، فاشتدّ شوقه إلى الأحبَّة.

(٢) يقصد بالأسفع: الغراب الأسود. النازع: الغريب. والذي أثار بالشاعر ألماً وألهب فؤاده في غداة يوم رحيل الأحبّة غراب أسود غريب عن الديار وأهلها.

(٣) شحا فاه: فتح منقاره. سليب، سليب بمعنى مفعول أي مسلوب. حَريب: مسلوب المال. فتح ذلك الغراب منقاره مؤذناً بالفراق بصوت مزعج كأنه سطا عليه من سلبه ماله، وثمة سرب غِربان تردّد خلفه ما نطق به.

(٤) و (٥) حينئذٍ حاول الشاعر إسكاته بأنه قد علم قصد الغراب، قائلاً: قد آذن =

أَلَـــم تَـــرَ أَنِّـــي لا مُـــحِـــبٌّ أَلَـــومُـــهُ
ولا بِـبَـديـلٍ مـنـهُـمُ أَنـا قـانِـعُ(١)

فَـسِـرْ بِـكَ عَـنِّـي لا تَـرى وَجْـدَ مُـقْـصَـدٍ
لـه زَفَـراتٌ أَحْـلَـبَـتْـهَـا الـمـدامِـعُ(٢)

أَلَـم تَـرَ دارَ الـحَـيِّ فـي رَوْنَـقِ الـضُّـحـى
بِـحَـيـثُ انـحَـنَـتْ لِـلْـهَـضـبَـتَـيْـنِ الأَجـارِعُ(٣)؟

وقـد يُـشْـعَـبُ الأُلَّافُ مِـنْ بَـعْـدِ عِـزَّةٍ
ويَـصْـدَعُ مـا بـيـن الـخَـلـيـطَـيْـنِ صـادِعُ(٤)

فـكَـمْ مِـنْ هَـوًى أو خَـلَّـةٍ قـد أَلِـفْـتُـهُـمْ
زَمـانـاً فـلـم يَـمْـنَـعْـهُـمُ الـبَـيْـنَ مـانِـعُ(٥)

= بالرحيل قبلك مُروّع فانصرف. ثم دعا عليه لو يُسقى سُمًّا، فيموت ليستريح من نعيقه؛ فالشاعر عليم بما يحمل منقاره من شؤم.

(١) ويتابع قوله للغراب بأن الشاعر لن يلوم حبيباً على حبّه، ولن يقبل باستبدال حبيبته مهما قدمت المغريات، فهو قانع بها.

(٢) ثم يطلب الشاعر من الغراب الرحيل والابتعاد، ويدعو له ألّا يعرف طعم الحبّ وعذابه، ويتمنّى له ألّا يذوق حرقة من أصابه سهم الحبّ، فخلّف ذلك المحبّ يذرف دموعاً حرّى تجري من عينيه.

(٣) الأجارع، مفردها جرعاء: هي أرض مستوية لا تنبت زرعاً. لا زال الشاعر يخاطب الغراب، لعلك لم تر دار الحيّ تحتضنها هضبتان فرقت بينهما أرض مجدبة لا تنبت زرعاً في ذلك الفجر الضاحك المفترّ عن جمال إلٰهي؟

(٤) يُشعب: يُفرّق. صدع الشيء: شقَّه نصفين ولم يفترق. مصير الحياة عجيب غريب، فقد يختلف الأصدقاء ويفترقون من بعد عزّة، وقد ينجح من يرمي الخليطين بالخلاف فيفترقان من بعد ألفة ومحبة.

(٥) الخَلَّة: المرأة الخفيفة. فكثير من الأحبّة والخِلّان قد عاشرتهم زماناً، فلما قضى القضاء بالفراق بانوا وبعدوا.

كـــأَنِّـــي غَـــداةَ الـــبَـــيْـــنِ رَهْـــنُ مَـــنِـــيَّـــةٍ
أَخـــو ظَـــمَـــإٍ سُـــدَّتْ عـــلـــيـــهِ الـــمَـــشـــارِعُ[١]

تَـــخَـــلَّـــسَ مَـــنْ يَـــهْـــواهُ مـــاءَ حَـــيـــاتِـــهِ
فـــلا الـــشُّـــرْبُ مَـــبـــذولٌ ولا هُـــوَ نـــاقِـــعُ[٢]

وبَـــيـــضٍ غَـــذاهُـــنَّ الـــنَّـــعـــيـــمُ كـــأَنَّـــهـــا
نِـعـاجُ الـمَـلا جِـيـبَـتْ عـلـيـهـا الـبَـراقِـعُ[٣]

عِـــرَاضِ الـــمَـــطـــا قُـــبِّ الـــبـــطـــونِ كـــأَنَّـــمـــا
وَعَـى الـسِّـرَّ مـنـهُـنَّ الـغَـمـامُ الـلَّـوامِـعُ[٤]

تَـحَـمَّـلْـنَ مِـنْ ذَاتِ الـتَّـنـاضُـبِ وانْـبَـرَتْ
لَـهُـنَّ بِـأَطْـرافِ الـعُـيـونِ الـمَـدامِـعُ[٥]

فـمـا رِمْـنَ هَـجْـلَ الـدَّارِ حـتَّـى تـشـابَـهَـتْ
هـجـائِـنُـهـا والـجُـونُ مـنـهـا الـخَـواضِـعُ[٦]

---

(١) المنية: الموت. المشارع: موارد الشاربين أحسّ الشاعر غداة رحيل الأحبّة كأنه على وشك الموت؛ فالعطش استولى على حلقه وسدّ سُبُل جريان الماء فيه.

(٢) تخلّس: سرق خلسة. ناقع: مرتوٍ. ولقد استولى المُحبّ على أسباب الحياة ممن أحبّه فسرقها، ولم يبقِ له حتى الماء، لذا بخل به، والماء يمثل الحياة والحبّ. والمشكلة أن عدم توفّر الماء وأن الشاعر عطش لم يرتوِ بعد.

(٣) و (٤) الملا: الصحراء. جيبت: سترت. يعرّج الشاعر على وصف نساء بيض، دلالة الحرية والجمال، منعّمات مرفّهات يعِشن عيشة الغنى شبيهات بنعاج صحراء، استترن بالبراقع، يكشفن عن عيون سحرهن قاتل ذوات ظهور عراض، وبطون ضامرة، لا يعلم سرّهن إلّا الغمام اللوامع.

(٥) التناضب: اسم موضع فيه ماء. تحمّلن: ظعنّ، ارتحلن. انطلقت القافلة تحملهن في هوادجهنّ من ذات التناضب إلى حيث قدر لهنّ الرحيل، فلما أيقنّ أن الأمر لا رجوع فيه انهمرت دموعهن من أطراف عيونهن.

(٦) الهَجْل: المطمئن من الأرض. الهجائن: الإبل البيضاء الكريمة. الجُون: النياق السوداء المشرّبة بحمرة. الخواضع: النوق تُخضع أعناقها حين يجد بها السير. لا =

وحتَّى حمَلْنَ الحَوْرَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ
وخاضَتْ سُدُولَ الرَّقْمِ منها الأَكارِعُ(١)

فلما اسْتَوَتْ تَحْتَ الخُدورِ وقد جَرَى
عبيرٌ وَمِسْكٌ بالعَرانينِ سَاطِعُ(٢)

أَشَرْنَ بِأَنْ حُثُّوا المَطِيَّ وقد بَدا
مِنَ الصَّيْفِ يَوْمٌ طَيِّبُ الظِّلِّ ماتِعُ(٣)

فَقُمْنَ يُبَارِينَ السُّدُولَ بِوَافِرٍ
يُلاعِبُ عِطْفَيْهِ الجَريرُ ودافِعُ(٤)

وكلِّ نُجَيْباتٍ هِجانٍ كأَنَّها
إِذا رَدَعَتْ منها الخِشَاشَةُ طَالِعُ(٥)

= يزال الشاعر يصف رحيل النسوة، فها هنّ في الطريق ينزلن أرضاً منبسطة فإذا بالنياق يسيح بهنّ السهل لسهولة السير في تلك الأرض، فتختلط الهجان والخواضع فيتشابهن.

(١) الحَوْر: المرأة الحوراء، ذات عينين حوراوين، والحور: شدّة البياض وشدّة السواد في العين، السدول: الستائر تستر بها الهوادج. الرقم: ضرب من الوشي. الأكارع: القوائم. ولا يزال الشاعر يتمّ صورة رحيل النسوة الحُور، ذوات العيون الجميلة في هوادجهنّ المجلّلة بستائر موشاة، أسدلت عليهن حتى غطّت قوائم النياق.

(٢) و (٣) العرانين، مفرد عُرنون: الأنوف. وما يزال الشاعر يتم الصورة؛ فالنسوة في خدورهن، وما يدلّ على ترفهنّ عطرهن ينتشر بالمكان حتى يداعب الأنوف، ما بين عبير ومسك. وهن على عجل، فأشرف قائد الرحلة يحثّ النياق على الإسراع؛ فاليوم يساعد على ذلك، في جوّ صيفيّ ظليل لطيف.

(٤) يُبارين: يتسابقن. الوافر: الجمل القوي السريع. الجرير: الحبل. الدافع: المهماز. لا يزال الشاعر يصف الرحلة. فالنياق يسابقن الريح والستائر المنسدلة على قوائمها في سباق دائم، يلاعب أعطافها رسن طويل ومهماز تُوجه به.

(٥) نُجيبات هِجان: نياق كريمات. الخشاشة: عود من الخشب يُوضع في أنف الناقة. الطالع: القمر. لا يزال الشاعر يُتمّ الصورة. يشبه الشاعر إسراع النياق الكريمات =

يُعارِضُها عَوْدٌ كأَنَّ رُضَابَهُ
سُلَافَةُ قارٍ سَيَّلَتْهُ الأَكارِعُ[١]

رَفيقٌ بِرَجْعِ المَرْفِقَيْنِ مُمَانِعٌ
إذا راعَ منه بالخِشَاشَةِ رائعُ[٢]

عليه كَريمُ الخِيمِ يخبطُ رِجْلَه
بِرِجْلٍ ولم تُسْدَدْ علينا المطالِعُ[٣]

يُجيبُ بِلَبَّيْهِ إذا ما دَعَوْتُهُ
على عِلَّةٍ والنَّجْمُ للغورِ طالِعُ[٤]

ولما لَحِقْنا بالْحُمولِ تباشَرَتْ
بِنا مُعْصِراتٌ غابَ عنها الطَّلائِعُ[٥]

= وهنّ يسرن في حال ردعهن بالخشاشة بقمر مشرق في حال رفعها رؤوسها وخفضها.

(١) العَوْد: البعير المسنّ. الأكارع، مفردها كُراع: المستدق من الساق. لا يزال الشاعر يُتمّ صورة القافلة، فثَمّ بعير مسنّ مشاكس يعرض للنجيبات الكريمات، وكأنّ ريقه خلاصة زفت ينحدر على قائمتيه.

(٢) يعمل ذلك البعير على تهدئة حركة المسارعة بسيره المتمهّل، فكلما تحركت الخشاشة آلمته فيزداد خوفه ويرتاع.

(٣) الخِيم: السجايا والأخلاق. من صفات ذلك الجمل صفة كرائم النياق الرفيعة براكبها، فهو يخبط رجلاً برجل، والطرق مشرّعة لم تُسدَّ علينا منافذها.

(٤) اللبّ: الصدر. دعوته: حَضضته. يركب الشاعر ذلك الجمل، والجمل مطواع يأتمر بأمر صاحبه، فهو يلبي سيده إذا حثّه على السير بصدره لعجزه، وقد حلّ المساء وتلألأت النجوم في السماء.

(٥) الحمول: ما تحمله النياق. المُعصر من الفتيات: اللواتي أدركن سنّ الشباب. الطلائع: الفجر الكاذب، ومن العرب من كان يتشاءم به. يصف الشاعر مغامرة لحاقه بركب فيه فتيات ما إن أدرك الشاعر الركب، وهو على جمله، حتى تباشرت به فتيات معصرات متفائلات بمستقبل سعيد ويتفاءلن بوصول الشاعر، وما يبشر به من خير.

تَـعَـرَّضْـنَ بِـالـدَّلِّ الـمَـلـيـحِ وإِنْ يُـرِدْ
حِـمَـاهُـنَّ مَـشْـغـوفٌ فـهُـنَّ مَـوانِـعُ[١]
خَـضَـعْـنَ بِـمَـعْـروفِ الـحـديـثِ بَـشـاشَـةً
كـمـا مُـدَّتِ الأَعْـنـاقُ وهـيَ شَـوارِعُ[٢]
فـيـا لَـيْـتَ شِـعْـري هـل أَبـيـتَـنَّ لَـيْـلَـةً
بِـحَـيْـثُ اطْـمَـأَنَّـت بـالـحَـبـيـبِ الـمَـضـاجِـعُ[٣]
وهَـلْ أُلْـقِـيَـنْ رَحْـلِـي إلـى جَـنْـبِ خَـيْـمَـةٍ
بِـأَجْـرَعَ حَـفَّـتْـهَـا الـرُّبـى فَـمُـتَـالِـعُ[٤]؟
وهَـلْ أَتْـبَـعَـنَّ الـدَّهْـرَ فـي نَـهْـضَـةِ الـضُّـحَـى
سَـوامـاً تُـزَجِّـيـهِ الـحُـمُـولُ الـدَّوافِـعُ[٥]؟
سَـقَـاهـا عـلـى نَـأْيِ الـدِّيـارِ خَـسـيـفَـةٌ
وبـالـخَـطِّ نَـضَّـاخُ الـعِـثـانـيـن واسـعُ[٦]

(١) الدَّل: الدَّلال. المليح: الجميل والظريف. تعرّض: أظهر نفسه. وحالما أحسّت الفتيات برفيق لهن حتّى أظهرن ما لديهن من جمال وملاحة وجوه ورقّة طباع، ولكنهن يمتنعن على كلّ طامع، فلا يستطيع الدخول إلى حماهن، فهنّ محصنات مصونات.

(٢) وكانت الاستجابة عبارة عن حديث حلو تخالطه بشاشة وجوه مبتسمة ببسمات ناعمات، وكان قبول صحبته أعناق النياق التي انساحت كرماح مسرعة.

(٣) يتمنى الشاعر لو يحصل على مرقد في ليلة إلى جانب الحبيب. فتلك الليلة أمنيته لا تمّحي ذكراها من قاموس الحياة.

(٤) أجرع ومتالع: موضعان. الرحل: ما يجعل على ظهر البعير لراحة راكبه. ألقى رحله: ترجل ونزل أرضاً. ويتمنّى الشاعر لو يسمح الدهر له بالنزول إلى جانب خيمة تحيط بها تلال تحميها من قسوة الطبيعة بين أجرع ومُتالع.

(٥) السوام: الأنعام. تُزجيه: تُسرع به. ويتمنّى الشاعر لو يرعى أنعاماً يخرج معها مع الفجر الأول، وتركض النياق متدافعة متسارعة تحمله إلى حيث يريد. حيث الحرية والبعد عن الوشاة والحسّاد.

(٦) خسيفة: سحابة ماطرة. الخطّ: الحيّ. نَضّاخ: ماطر. العثانين: الرياح. يتمنّى =

أَجَـــشُّ جُـــمَـــادِيٌّ إذا عَـــجَّ عَـــجَّـــةً
وأَقْـبَـلَ يَـسْـتَـتْـلـي تَـسـكُّ الـمـسـامِـعُ[١]
يُـحِـطُّ الـوُعُـولَ الـشُّـهْـلَ مِـنْ رَأْسِ شـاهِـقٍ
ولـلـسِّـدْرِ والـدَّوْمِ الـطِّـوالِ الـمـصـارِعُ[٢]
فـقُـلْـتُ لأَصْـحـابِـي، ودَمْـعِـيَ مُـسْـبَـلٌ
وقـد صَـدَعَ الـشَّـمْـلَ الـمُـشـتَّـتَ صَـادِعُ[٣]
أَلـيـلـى بِـأَبـوابِ الْـخُـدورِ تَـعَـرَّضَـتْ
لِـعَـيْـنِـيَ أَمْ قَـرْنٌ مِـنَ الـشَّـمْـسِ طـالِـعُ[٤]؟

١٣٣
نعم إنني صَبٌّ

[الطويل]

إذا حُـجِـبَـتْ لَـيْـلَـى فَـمـا أَنْـتَ صَـانِـعُ
أَتَـصْـبِـرُ أَمْ لـلـبَـيْـنِ قَـلْـبُـكَ جـازِعُ[٥]؟

= الشاعر لتلك الديار الخير العميم والمطر بحيث تعمّها سحابة بمطرها الغزير، والرياح تأتي بدفق مطر عميم يجعل الخضرة تعمّ تلك الرباع.

(١) أجشُّ الصوت: خشن الصوت. عجّ الصوت: رفعه. جُماديّ: نِسبة شهري جُمادى، ويُخص بذلك فصل الشتاء. تسكّ المسامع، تصمت. يُتمّ الشاعر الصورة في يومٍ مطير في جمادى، شهر المطر، فزمجرة الرعد مخيفة تصمّ الآذان لترادفها وتتبعها.

(٢) يحطّ: ينزل. السدر والدوم: أنواع من الشجر، لا يزال الشاعر يرسم الصورة، وتتّضح معالمها. تلك الأمطار والرعود تُثير خوفاً حتى في عالم الحيوان، فتجبر الوعول على الهبوط إلى السهول خوفاً تاركة أعالي الجبال؛ فصوت الرعد مخيف مرعب، وشدّة الرياح تصرع تلك الأشجار الصلبة القوية فتكسرها فتهوي طريحة صراع الطبيعة القاسية.

(٣) و (٤) في هذا الجوّ المخيف المرعب، تذكر الشاعر ليلى حبيبته، فقال لأصحابه مستفسراً، ودمعه على خديه، خوفاً عليها، وأفلح الواشون فانقطعت أواصر المحبة: أهي ليلى التي تصدّت بباب الخدر لعيني المحبّ، أم هي الشمس أشرقت بضيائها؟

(٥) يتساءل الشاعر، إذا حُجر على ليلى ومُنعت من المثول بين يديه أيتحمّل مرارة الصبر أم أنه يخاف قلبه من الهجر والبعد؟